كتاب المفاخر

الباب الأول: في فضيلة السخاء والجود.

الباب الثاني: في اصطناع المعروف.

الباب الثالث: في مذمة البخل والبخيل.

الباب الرابع: في حكايات البخلاء.

الباب الخامس: في أجواد العرب في الجاهلية.

الباب السادس: في أجواد الإسلام.

الباب السابع: في مكارم الكرام.

الباب الثامن: في حكايات أهل الفتوة.

الباب التاسع: في مكارم الأخلاق.

الباب العاشر: في الفرق بين الفتوة والمروءة.

الباب الحادي عشر: في حديث نعمان.

obeikandl.com

الباب الأول

في فضيلة السخاء والجود

اعلم أن الدين مبني على الجود والسخاء. قال اللّه تبارك وتعالى: «هذا دين أرتضيه لنفسي ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه»: والأولياء جبلوا على السخاء وهو أخو الإيمان، فقد قرن اللّه سبحانه وتعالى السخاء بالإيمان فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ [الليل: ٥ - ٦] وقال رسول اللّه ﷺ: «يا زبير أنا رسول اللّه إليك خاصة وإلى الناس عامة». يقول اللّه تعالى: «أنفق أخلف عليك، ولا توكِ فيوكَى عليك[1]، ووسع يوسع اللّه عليك، ولا تضيق فيضيق اللّه عليك»، واعلم أن فضول الأموال سوى الأرزاق التي قسمها اللّه بين العباد محتبسة عنده، لا يعطي أحدا منها شيئا إلا من سأله عشية الخميس وليلة الجمعة، وقال: «لما خلق اللّه تعالى الإيمان، قال: اللهم قوني فقواه بحسن الخلق والسخاء، ثم خلق البخل وجعله في الكفر، ثم قال: يا ملائكتي السخي قريب مني، قريب من جنتي، قريب من ملائكتي، بعيد من النار». قال اللّه تعالى: «وعزتي وجلالي لا يجاورني في جنتي بخيل»: وفي حديث آخر: «لا يجتمع الإيمان والشح في قلب رجل مؤمن أبدا»؛ يقال: ثواب الجواد ثلاثة: خُلْفٌ ومحبة ومكافأة، وثواب البخيل ثلاثة: حرمان وإتلاف ومذمة.

وقال ﷺ: «سادة الناس في الدنيا الأسخياء، وسادة الناس في الآخرة الأنبياء». وقال: «إن اللّه تعالى يبغض البخيل في حياته السخي عند موته»، وقال: «السخي الجهول أحب إلى اللّه من العابد البخيل»، وقال: «ألا إن البخل من

---

(١) توكِ: من الإكاء، ويقال: سُئل فأوكى، والإكاء كل ما شُدَّ من وعاءٍ ونحوه. "القاموس المحيط".

الكفر والكفر في النار، ألا إن السخاء من الإيمان والإيمان في الجنة». قال الشافعي ﷺ: السخاء والكرم يغطي عيب الناس في الدنيا والآخرة. وقال رسول اللّه ﷺ: «ألا أخبركم عن أجود الأجواد قالوا: بلى يا رسول اللّه قال: اللّه تبارك وتعالى أجود الأجواد، وأنا أجود ولد آدم، وأجودهم بعدي رجل علم علما ينشر علمه يبعث يوم القيامة أمة وحده، ورجل جاد بنفسه في سبيل اللّه تعالى حتى يقتل»، وقال: «إليك انتهت الأماني يا صاحب العافية»، معناه: أن صاحب العافية يصبح وحاجته تلك يتمناها الأموات والأحياء، فأما الأموات فمن كان مسيئا فليراجع ومن كان محسنا فليزدد. وقال اللّه تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران: ٩٢] جعل اللّه الجنة باقية والمال فانيا ثم جعل الفانية طلبا للباقية فالعجب كل العجب ممن آثر الفاني على الباقي، وقال: «ما أحسن محسن من مسلم ولا كافر إلا أثابه اللّه تعالى، قلنا: يا رسول اللّه، وما إثابة الكافر؟ قال: إن كان قد وصل رحما له أو تصدق بصدقة أثابه اللّه، وإثابته إيتاء المال والولد، قلنا: يا رسول اللّه: وما إثابته في الآخرة؟ قال: عذاب دون عذاب»[1].

نادرة في السخاء: قدم خالد بن الوليد على رسول اللّه ﷺ بأُسَراء من الروم فعرض عليهم الإسلام فأبوا، فأمر بضرب رقابهم حتى إذا جاءوا إلى آخرهم وبقي واحد، فما حاكت فيه السيوف، فتعجب منه النبي ﷺ فجاء جبريل، فقال: «لا تقتله فإنه سخي، وإن اللّه تعالى يحب الأسخياء»؛ وهذه بركة السخاء ولما أهلك اللّه تعالى فرعون قال موسى: «يا رب ما بال فرعون كنت أدعو عليه فلم تهلكه حتى الآن؟ فقال: يا موسى أما علمت أني آليت على نفسي أن لا أضر الأسخياء في الدنيا والآخرة وإن كانوا كافرين وفرعون - لعنه اللّه - كان سخيا فلما اتخذ الحجاب وأظهر الشح والبخل أهلكته»؛ ولما سمع حاتم الطائي قول المتلمس. قيل:

---

(١) أي: يقلل من عذابه ويُهَوِّن عليه من بعضه في الآخرة.

المال تصلحه فيفنى، فقال: قطع اللّه لسانه، وأخشم أنفه[١]، وأعمى عينه، هلا قال:

وما الجود يفنى المال قبـــل فنائـــه ولا البخل في مال البخيـــل يزيـــد
فـــــلا تلتمس مالا تعيش بكـــده لكل غد رزق يعـــــود جديـــد[٢]

الباب الثاني

في اصطناع المعروف

قال رسول اللّه ﷺ: «اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس أهله، فإن أصبت أهله فأنت أهله وإن لم تصب أهله فأنت أهله»،[٣] وسئل رسول اللّـــه ﷺ عن ابن الرشدة وعن غير ابن الرشدة فقال: «من كافأ بالإساءة على الإحسان فهو لغير رشدة، ومن كافأ عن الإساءة بالإحسان فهو ولد رشدة». فاصطنعوا البر يا معشر الكبراء وأعيان الوزراء وجماعة الرؤساء - وقاكم اللّه الأسواء إلـــى خلق اللّه تبارك وتعالى؛ لتحوزوا ثواب اللّه آدميا كان أو بهيمة، فما ضاع عُرْفٌ بين اللّه تعالى وبين الناس.

أما سمعتم أن اللّه تبارك وتعالى أدخل امرأة فاجرة الجنة بسبب كلب رأتـــه يلهث عطشا، ففتحت خمارها وأسقته الماء، وأدخل اللّه عجوزا النار بسبب هـــرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي خلتها تأكل من خشاشَ الأرض، وفي الخبر: «أنَ الرجل من أهل النار ينظر إلى الرجل من أهل الجنة، فيقول: يا فلان ما تذكر يوم اصطنعت إليك في الدنيا معروفا، فيقول: اللهم إن هذا اصطنع إلـــي فـــي الـــدنيا

---

(١) أي: قطع خيشومه.
(٢) البيتان من بحر الطويل.
(٣) أي: إن أصبت من كان أهلاً للمعروف، فذاك حريٌ بك أن تنزل المعروف به، وإن لم يكـــن أهلاً لذلك فحريٌ بك أيضا أن تحسن إليه فهو محتاج لإحسانك وإن لم يكن هو نفسه يستحق هذا الإحسان، والله أعلم.

معروفا، فيقول له: خذ بيده فأدخله الجنة».

وقال رسول اللّه ﷺ: «أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة»، قلنا: يا رسول اللّه، ما معروف الآخرة؟، قال: «إذا كان يوم القيامة يأتي اللّه بقوم من أمتي فيدخلهم الجنة بغير حساب؛ لقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١] ويأتي اللّه تعالى بقوم فيدخلهم النار بغير حساب، ويأتي اللّه تعالى بقوم فيحاسبهم فتزيد سيئاتهم على حسناتهم، فيقول اللّه تعالى: يا عبادي من نبيكم؟ - وهو أعلم - فيقولون: من أمة محمد عليه الصلاة والسلام، فيقول: هل زيد في سيئاتكم شيء؟ فيقولون: لا يا ربنا، فيقول: هل نقص من حسناتكم شيء؟، فيقولون: لا، فيقول: عبادي علام كان اتكالكم؟، فيقولون: على حسن ظننا بك يا رب، فعند ذلك يأمر اللّه تعالى رضوان خازن الجنان أن أخرج الذين أدخلتهم الجنة بغير حساب، فدعاهم فخافوا، فيقول: هؤلاء إخوانكم من أمة محمد ﷺ قد زادت سيئاتهم على حسناتهم، فهبوا لهم حسناتكم، فيهبون حسناتهم فيدخلهم الجنة، فعندها قال النبي ﷺ: أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة».

وقال اللّه تعالى لعيسى عليه السلام: كن في الحلم كالأرض تحمل العباد، وفي السخاء كالماء الجاري، وفي الرحمة كالشمس والقمر يطلعان على البر والبحر، وعلى البر والفاجر، فقال: إني أكره أن أترك أمرا قد وقع لأمر لعله لا يقع[1].

الباب الثالث

في مذمة البخل والبخيل

اعلم أن البخل داء لا دواء له، وقد قرن اللّه البخل بالكفر في كتابه العزيز، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩﴾ [الليل: ٨ - ٩] وقال النبي ﷺ:

---

(١) لعل معنى كلامه - والله أعلم -: لا أترك إحساناً إلى أحدٍ من الناس لكونه قد يسيء فيما يستقبل من الزمان.

«البخيل لا يدخل الجنة»[١] وكان بعض العلماء لا يقبل شهادة البخيل، ورأى رسول اللّه ﷺ رجلا معلقا بأستار الكعبة يقول: يا رب اغفر لي، يا رب اغفر لي، وما أراك تفعل، فقال: ولم تراه لا يفعل؟ ما شأنك؟ قال: إني رجل صوام قوام كثير المال إلا أني إذا نزل بي ضيف أو أتاني سائل فكأنما تشتعل في قلبي شعلة نار، فقال النبي ﷺ: «تنح عني لا تحرقني بنارك، فوالذي أرسلني بالهدى لو صمت ألف عام وصليت ألف عام بين الركن والمقام، وجرت من دموعك الأنهار، ثم مت وأنت لئيم أكبك اللّه في النار» واللؤم من الكفر، والكفر في النار، والسخاء من الإيمان والإيمان في الجنة. قال بشر: النظر إلى البخيل يقسي القلب، قالوا: جود الرجل يحببه إلى أضداده، وبخله يبغضه إلى أولاده، وفي الخبر: «أن النبي ﷺ قال للرجل الذي سأله عمن ترك دينارا قال: ترك كيّة، قال: ترك دينارين قال: كيّتين» وهذا من المال الذي ترك حقه الراتب[٢]، فأما إذا أدى حق اللّه تعالى فليس ذلك بكيّ. وسئل بعض العلماء: لماذا أمر بكيّ ثلاثة مواضع؟، فقال: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾[التوبة: ٣٥] ، قال: لأنهم لما قيل لهم لم بخلتم بالزكاة؟ قالوا: إنها وجهنا فنضن بها ليتبقى لنا ماء الوجه، قال اللّه تعالى: ﴿ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ ﴾ كي يذهب بشاشتها وماءها في الوقت، ثم قال: ﴿ وَجُنُوبُهُمْ ﴾ لقولهم: المال للرجل ظهر، فمن لا مال له لا ظهر له. فيقال للبخيل: هذا مالك الذي كنت تبخل به فيكون لك كيات، وقال النبي ﷺ: «لما خلق اللّه تعالى الإيمان، قال: إلهي قوني فقواه بحسن الخلق، ثم خلق الكفر، قال: إلهي قوني فقواه بالبخل، ثم خلق الجنة، ثم قال: يا ملائكتي السخي قريب مني

---

(١) أي: مع أول الداخلين لها، حتى يعفو الله عنه أو يحاسبه فيعاقبه أو يشفع فيه النبي ﷺ أو أحد من أمته ﷺ.

(٢) أي: زكاةً واجبةً أخرج هذا المال عنها أو إنفاقا على من تجب عليه نفقته كوالدين مستحقين أو عيالٍ، أو مواساة واجبة في نازلةٍ نزلت بالمسلمين.

قريب من ملائكتي قريب من جنتي بعيد من النار».

وقال عليه السلام: «والذي نفسي بيده لفاسق سخي أحب إلى اللّه تعالى من مسلم بخيل»، وفي الحديث: أن بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام، فقالوا: سل ربك متى يرضى عنا، ومتى يسخط علينا؟ فأوحى اللّه تعالى إليه: إني إذا أنزلت الغيث في زمانه، وأمَّرْتُ عليكم خياركم، وجعلت مالكم عند سمحائكم؛ فإني عنكم راض، وإذا أنزلت الغيث في غير أوانه، وأمّرت عليكم شراركم، وجعلت أموالكم عند بخلائكم؛ فأنا عليكم ساخط – فنسأل اللّه تعالى الرضا.

الباب الرابع

في حكايات البخلاء

كان رجل بخيل إذا وقع في يده درهم أو دينار نقره بيده ثم وضعه على كفه ويقول: سبحان اللّه هذا أجل الأشياء إلى اللّه، فيه شفاء ووفاء يا نور عيني وثمرة فؤادي، كم مدينة دخلتها، وكم يدًا وقعت فيها فلم يعرفوا قدرك، فداك أبي وأمي، الآن استقرت بك الدار، واطمأن بك المزار، ونجوت من خطر الأسفار وأيدي التجار، لك البشارة في كيس ملمع وصندوق منقش، وكان يقبله ويضعه في الصندوق.

حكاية: اجتمع ثلاثة من البخلاء فقالوا: تعالوا ننظر أينا أبخل، فقال أحدهم: أنا أبخلكم لأني أبخل بمالي على الناس، قال الآخر: بل أنا أبخل لأني أبخل بمال الناس على الناس، وقال الثالث: أنا أبخل لأني أبخل بمال الناس على نفسي، فأجمعوا على أنه أبخل.

حكاية: شيخ بخيل غلب عليه الدم فأراد أن يحتجم فضاق قلبه في إعطاء دانق[1]، فكل يوم يأتي الحجام ويرى الناس يفتصدون ويتحسر، فرأى يوما على

(١) أي: سدس درهم، أي: (٠,٤٩٦) جرامًا من الفضة.

ظهر رجل قارورتين، فقال: بكم تصنع هذه؟ قال: بدانق ونصف، فأخرج يده وقال: اضرب واحدا على هذا الحساب إما باسليقا[١] وإما فيقالاً لا أقل من واحد ولا أكثر، فعلم أنه بخيل فقطع عرقه فانتفخت يده ومات، فصار مثلا: «ما منع من الحجام أعطى الطبيب».

حكاية: مجوسي بهراة كان شقيا فقال: في جميع عمري لم آكل شاة، فقام رجل مسلم ونقب سطحه، وأخذ له أربعة آلاف دينار، ونوى في نفسه إن لم يفضحني اللّه في هذا الأمر أتوب وأرجع، فلم يصل إليه مكروه، فتاب وأنفق ماله في سبيل اللّه تعالى، فقيل: إنك لا تؤجر عليه، فقال: عون الإسلام أحب إلي من عون الكفر[٢].

وسبب توبة حبيب العجمي أنه كان بخيلا فطبخ قدرا، فجاء سائل فنهره، فصار القدر كله دما عبيطا فتاب، ولم يرد سائلا.

حكاية: كان رجل بخيل فغرق في الماء فأدركه الملاح، فقال: كم تعطيني حتى أنجيك؟ قال: قيراطا[٣] وسدس حبة[٤]، فقال بل درهما[٥]، قال: لا أعطيك إلا قيراطا وحبة دعني أغرق، فقال الملاح: يا بغيض اللّه، هذا وقت المصارفة فأرسله فغرق.

---

(١) لعله قصد (الباسليقون) الحاد، يستعمل في علاج الظفرة، وهي زيادة عصبية في الحجاب الملتحم من المآقي الأكبر فتنبسط "الذخيرة في الطب" – لثابت بن قرة – ط المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٣٨م – ص ٣٧.

(٢) لكن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، والحرام هو الحرام وإن أخذه من مجوسي بخيل أو غيره، والحكاية هنا إنما هي للتندُّر والعظة من عواقب البخل وأهله، وأنه ربما بخل به ثم أخذه سارق أو ورثة غيره.

(٣) القيراط: جزء من أجزاء الدينار، وعند الجمهور: (١/ ٢٤) من الدينار إذن ١/٢٤ × ٤٢٥/ ١٠٠ (وزن الدينار ذهبا) × ١٥٠ جنيه (ثمن جرام الذهب تقريبًا) = (٢٦,٧) جنيه تقريبًا.

(٤) الحبة: وزن للنوع من الحبوب (الأجزاء) التي يتركب منها الدرهم والدينار وباقي الأوزان، وتساوي (١/ ٧٢) من الدينار، أي: (٨,٨٥) جنيه تقريبًا.

(٥) الدرهم يساوي (٢,٩٧٥) جرامًا فضةً تقريبا.

حكاية: أضاف رجل رجلا بخيلا فأكل أكلا لَمًّا فأصابه القولنج[١]، فقال الطبيب: لابد من القيء، قال: دعني أموت ولا أتقيأ القلية والبيض، فلم يتقيأ حتى مات. وكان بقزوين شقي جمع أموالا عظيمة فلم يأكل منها شيئا، فطرقته اللصوص في بعض الليالي وخنقوه وأخذوا جميع ماله. وكان بنيسابور بخيل فملك ثلاثمائة جمل بأحمالها وأقتابها[٢]، وكان يتجر فقتل في الطريق، فلما جرح صار يقول: احفظوا الجمل الفلاني ومات. فقلت: «رب مانع لخليله جامع لبعل حليله»[٣]، واللّه أعلم.

الباب الخامس

في أجواد العرب في الجاهلية

هاشم بن عبد مناف، وأمية بن عبد شمس، وعثمان بن عمرو بن كعب بن مرة، سمي شارب الذهب لكثرة نفقاته، وعبد اللّه بن عمرو بن جدعان قومه حجروا عليه من كثرة عطاياه، فإذا أتاه زائر منتجع[٤] يقول له: اقعد إلى جنبي فإني ألطمك ثم طالبني بالقصاص ولا ترض إلا بما تريد. هشام بن المغيرة بن عبد اللّه بن عمرو بن مخزوم، اتخذت قريش موته تاريخا.

فأصبح بطن مكة مقشعرًا كأن الأرض ليس بها هشام[٥]

أبو دوانة قال: قدمت مكة معتمرا، فقلت: أما من مضيف؟ فقالوا: فلان، فأتيته فإذا أنا بالحارث بن هشام على سريره وبين يديه جفان فيها خبز ولحم

---

(١) القولنج: هو أنواع، ويكون معه ألم بالبرد وريح باردة نافخة. "الذخيرة في الطب" – ص ٧٩.

(٢) الأقتاب: جمع (قَتَب)، وهو الإكاف على قدر سنام البعير.

(٣) أي: يجمع مالا ويتركه لبعل حليلته أي زوج امرأته الذي يخلفه عليها.

(٤) منتجع: أي أتاه طالبًا معروفه.

(٥) الأقتاب: جمع (قَتَب)، وهو الإكاف على قدر سنام البعير.

وأنطاع عليها زبيب، فقال: أصب، ثم قال: هذا لك ما أقمت، فأقمت ثلاثا ثم عدت إلى المدينة فأخبرت النبي ﷺ فقال: علم اللّه أنه لسرى وودت أنه أسلم. وخلف ابن وهب من بني جمح وأبيّ بن خلف قتله رسول اللّه ﷺ يوم أحد، وأمية بن خلف، وصفوان بن أمية، وسلمى بن نوفل.

تسوّد أقوام وليسوا بسادة بل السيد المذكور سلمى بن نوفل[١]

ومالك بن حنظلة لبني تميم والقعقاع بن معبد بن زرارة بن عدي يلقب بنار الفرات، وصعصعة بن ناجية أحيا الموءودات فبعث اللّه نبيه وعنده مائة جارية، وقال الفرزدق:

وجدى الذي منع الوائدا ت فأحيا الوليد ولم يئد

واسمه أبو غالب، وجوين بن ظهير رَبَّع ستين مرباعا[٢]، وقسم ألف ناقة وكأسه في يده قبل أن يشربها، فأنشأ وجعل يذكر شعرا في المعنى:

ومنا جوين جاء من غير خبثة بستين مرباعا وألف مصمم
فقسم عرجا كأسه فوق كفه فآت بنهب كالغسيل الملمم[٣]

العرج: الألف من الإبل. والحر بن منيع أخو بني ذهل بن بكر بن وائل منح في يوم مائة لقوح، وقيل: ثمانين ألفا ثم أهداها إلى الكعبة حتى لقحت وفصلت من العام المقبل عليها جلالها فنحرها. والحرث بن مرة بن جشم منح غداة واحدة ألف لَقْحة[٤]. وابن سنان بن أبي حارثة بن قيس. وعامر بن عمرو بن أبي ربيعة ابن ذهل. وقيس بن مسعود كان له مائة ناقة معدة للأضياف. وهودة بن مرة الشيباني حلف ليطعمن ما هبت الريح شمالا، ويقال: رماده باق بالحيرة بعد.

---

(١) البيت من بحر الطويل.
(٢) المرباع: المحلة والمنزل والموضع يرتبعون فيه الربيع والنعش. "القاموس المحيط".
(٣) البيتان من بحر الطويل.
(٤) اللقحة: التي قبلت اللِّقاح من الإبل.

وكعب بن مامة بن إياد. وحاتم بن عبد اللّه بن سعد الطائي. وأوس بن حارثة وأحاديثهما أكثر من أن تحصى، قال جرير لعمر بن عبد العزيز:

فما كعب بن مامة وابن سعدى بأجود منك يا عمر الجوادا[١]

فهذا يا معشر العظماء خلاق من لا يؤمن باللّه واليوم الآخر، فهل ترى اليوم في الحنيفية من يباريهم ويساميهم هيهات، ذهبت الرجال وبقيت ربات الحِجَال[٢]:

رجال إن يؤملهم لبيد بكى الخلف الذي يشكو لبيد[٣]

الباب السادس

في أجواد الإسلام

عبد اللّه بن العباس بن عبد المطلب - رضي اللّه عنهما - له أحاديث عجيبة منها: أن صرافا قام للناس بتسعة آلاف دينار فلزمه غرماؤه، فسألهم أن ينفسوه حتى يتحمل، فقالوا ما نرضى إلا بكفيل هو فلان، فقصده الغرماء به فخلى الصيرفي حاله فقال: اضمني إلى وقت كذا، فقال لغرمائه: ائتوني بصكوككم فأتوه بها فحرقها، وقضى عنه تسعة آلاف دينار، ولم يكن بينه وبينه حرمة ولا خلطة.

والسفّاح، وهو عبد اللّه الأصغر بن محمد بن عليّ، وعبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب، وله أحاديث عجيبة. أتاه رجل وقد قُدِّمت راحلته ليركبها، فقال: أنا رجل منقطع بي؛ فأعطاه الراحلة بما عليها، فقام الغلام ليأخذ السيف من قِرَابه، فصاح به عبد اللّه أن دعه، وقال: يا هذا لا تخدع عن السيف فقد اشتريته بألف دينار. وجاءته

---

(١) البيت من بحر الوافر.
(٢) الحِجَال: جمل (حَجَل) كالقبَّة، وموضع يزين بالثياب والستور للعروس. "القاموس المحيط".
(٣) البيت من بحر الوافر.

امرأة وقالت: تقرئك خالتك السلام هذه دجاجة ربيتها وسمنتها، فلم أر أحدا أحق بها منك فأخذها وأمر لها بألف درهم، فقالت: أبقاك اللّه، فقال: زيدوها ألفا، فقالت: حفظك اللّه، فقال: زيدوها ألفا، فقالت: أمتعني اللّه بك فقال: زيدوها ألفا، فقالت: جعلني اللّه فداك، قال: زيدوها ألفا، فقالت: حسبك يا مسرف، فقال: لو تبتِ لتبتُ.

وعبد اللّه بن جعفر كريم الدنيا، قال المطيع لمولاه: اكتب عليّ صحيفة لفلان على عبد اللّه بن جعفر ثلاثمائة دينار حالّة، ثم قال: اعرض عليه، قال: كيف أعرض ولا معاملة ولا معرفة لي؟ قال: افعل ما أمرتك فسلم عليه وألقى الصحيفة، فقال: عبد اللّه: كم فيها؟ قال: ثلاثمائة دينار، قال: ادفعها إليه ولم يأخذ الصحيفة، فجاء وقال: ما رأيت أعجب من هذا، قال: احتفظ بالدنانير وارجع إليه وقل مثل ذلك، فرجع، فأعطاه ثلاثمائة أخرى، فجاء متعجبا، فلما مضى شهر، قال: ارجع إليه، فرجع فأعطاه ثلاثمائة أخرى، فركب المطيع ومولاه والمال وقد جمعه، فقال: يا أبا جعفر اتق اللّه وانظر لنفسك ونمتك، فإن لك معادا أتاك مولاي هذا يذكر أن له عليك ثلاثمائة دينار، ولم يكن بينكما معاملة، فلا تزيد على أن تقول كم هو؟ أعطوه حتى أخذ منك تسعمائة دينار، فقال: إن اللّه تعالى قد عودني عادة وعودت عباده عادة، فإذا غيرت عادتي غير عادته عليّ، أيرجع إلي شيء خرج من عندي، هو له حلال طيب.

وطلحة بن الحسن بن عليّ بن طلحة الخير. وعبيد اللّه بن أبي بكرة؟ ومن بني أمية سعد بن سعيد بن أمية كان ينحر كل يوم جزورا[1] ويطعمها الناس. وعبد اللّه بن عامر بن كريز بن ربيعة، وله حياض عرفات، وسوق البصرة اشتراه من ماله ووهبه لأهله. وحمزة بن عبد اللّه بن الزبير بن العوام، وطلحة ابن عبد اللّه بن عوف كان يأتيه الرسول فيسلم عليه ويعده ويأتيه الثاني والثالث

(١) الجزور: الجمل.

إلى أن يجتمع عنده رجال بعدد ما عليه من الثياب، ثم يدخل فيخلعها على واحد واحد ويقول: ناولني شيئا أستتر به، وهو طلحة الندي، وعمر بن عبد الله بن معمر بن عثمان، وله أحاديث كثيرة: اشترى جارية من أبي حراثة التيمي بمائة ألف درهم وكان بها مشغوفا، فلما قبض المال ذهبت الجارية لتخرج فتطق بها وتسمى شباسة، وأنشد:

تذكر من شباسة اليوم حاجة ... أبت كمدا من حاجة المتذكر
فلولا قعود الدهر بي عنك لم يكن ... يفرقنا شيء سوى الموت فاعذري
أبوء بحزن من فراقك موجع ... أناجي به قلبا كثير التفكر
عليك سلام لا زيارة بيننا ... ولا وصل إلا أن يشاء ابن معمر[١]

فقال ابن معمر: قد شئت هي لك وثمنها، وطلحة بن عبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عبد الرحمن بن الوليد جواد ممدوح. والحكم بن عبد المطلب. والمغيرة الأعور. وهشام بن المغيرة أجواد يطعمون الناس. وعبد اللّه بن صفوان. ومحمد بن عمر بن عطارد حمل ألف رجل على ألف فرس انهزموا إليه في بكر بن وائل في أذربيجان في غداة واحدة. ونهشل بن عمرو بن عبد اللّه. وعتّاب بن ورقاء من بني رباح. ومن فزارة أسماء بن خارجة بن حصن. ومن ربيعة عكرمة الفياض، والحرث بن مرة العبدي، قسم في يوم واحد ألف رأس من الإبل، واللّه تعالى أعلم[٢].

---

(١) الأبيات من بحر الطويل.

(٢) وعلى أن الكرم والجود كان سجيةً في العرب قبل الإسلام أو بعد الإسلام إلا أن إنفاق المرء باستحضار نياته وهو مسلم مخلصًا لربه فيما ينفق وتجود به نفسه لا يعادله الكثير والكثير من السخي حال كونه كافرًا أو مشركًا، وفي الحديث «أصحابي أصحابي، فإنه لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم أو نصيفه».

الباب السابع

في مكارم الكرام

قيل: بنى بعضهم دارا ونقش على بابها شعرا:

يا قارع الباب ادخل غير محتشم فإن قرعك عندي أعظم الشان
نصبت بابا لضيفان إذا طرقوا فالمال بيني وبين الضيف نصفان[١]

وقال أبو دلف - وقد نقش على بساط له هذا الشعر -:

منزلنا هذا لمن حله نحن سواء فيه والطارق
فمن أتانا فيه فليحتكم فينا وفيه يده طالق
سوى أهلينا وأولادنا فلم يرخص فيهم الخالق

مكرمة عبيد اللّه بن أبي بكر: من الأسخياء ينفق على جيرانه لأربعين دارا، ووسع له رجل في مجلس فأمر له بعشرة آلاف درهم، واشترى جارية بعشرة آلاف فطلبوا لها دابة يركبونها عليها، فقال رجل: هذه دابتي، فقال: احملوها إلى داره على دابته.

مكرمة عمر بن أبي ربيعة: طاف ليلة فرأى رجلا متعلقا بأستار الكعبة وهو يقول:

ما دون من أهواه يقنعني فامنن عليّ فأنت ذو كرم[٢]

فقال: ما هواك يا ابن أخي؟ فاستحيا الرجل، وقال كلمة لا معنى لها، فقال: أعد عليّ ذلك، قال: ابنة عم لي عشنا برهة من الدهر وعلق بعضنا بعضا فرغب أبوها عن تزويجها لي لفقري، قال: فسر معي إلى أبيها، قال: في هذا الليل؟، قال: انطلق. ثم قال للفتى عند الوصول: تأخر، فتأخر وقرع الباب، وقال: أنا ابن أبي

---

(١) البيتان من بحر البسيط.
(٢) البيت من بحر البسيط.

ربيعة، فخرج الرجل عجلا، وقال: مرحبا وأهلا، فقال: ما أنا بداخل حتى تقضي حاجتي، جئتك خاطبا ابنتك على ابن أخيك، وقد أصدقتها عشرة آلاف درهم، قال قد زوجته. يا معشر الرؤساء ويا أصحاب العلم استحيوا من اللّه تعالى حق الحياء، هذه المكارم لا قِعْبان من لبن[1].

مكرمة أسماء بن خارجة: فسخاؤه وجوده لا يوصفان، تقدم يوما إلى باب داره فوجد فتى، فقال: خير، قال: خير، فألح عليه، قال: جئت مسلما على صاحب هذه الدار فخرجت إلي جارية فاختطفت قلبي فجلست حتى أنظر إليها ثانيا. قال: أوتعرفها؟ قال نعم، فدعا الجواري فجعل يعرضهن عليه حتى مرت، فقال: هي تلك. فقال مكانك ثم دخل الدار فأبطأ ثم خرج إليه، وقال: إنها لم تكن لي كانت لبعض بني فابتعتها بثلاثة آلاف درهم خذ بيدها بارك اللّه لك فيها. هذه مكارم الأخلاق لا قعبان من لبن، وقال: ما بذل لي رجل ماء وجهه فرأيت شيئا من الدنيا وما فيها عظمت أو قلت بدلا له ثم أنشد:

إذا ما مات خارجة بن حصن ... فلا مطرت على الأرض السماء
ولا رجع البشير بغنم جيش ... ولا حملت على الظهر النساء
فيوم منك خير من أناس ... تروح عليهم إبل وشاء
فبورك في بنيك وفي بنيهم ... إذا ذكروا ونحن لهم فداء[2]

مكرمة سعد بن العاص: قال: ما أدري كيف أكافئ رجلا بات يقسم فطنته، فلا يقع إلا على أصبح يتخطى الناس والمجالس من الأحياء والأموات حتى يكرمني بنفسه، ويؤنسني بحديثه، غدا التجار إلى تجاراتهم وغدا إلي، فإن كنت أبخس بحظه أبخس اللّه تبارك وتعالى بحظي يوم القيامة.

---

(١) أي: ليس الكرم مجرد الأقداح الضخمة من اللبن التي تجعلوها للناس وتعدون هذا كرمًا منكم.

(٢) الأبيات من بحر الوافر.

مكرمة مورق العجلي: كان يتلطف في إدخال الدراهم على إخوانه كان يضع عندهم ألف درهم، فيقول: أمسكوها حتى أرجع إليكم ثم يرسل إليهم: أنتم منها في حل.

مكرمة علي بن الفضل: كان يشتري من باعة المحلة، فقيل له: لو دخلت السوق واسترخصت، فقال: هؤلاء نزلوا بقريتنا رجاء منفعتنا.

مكرمة: بعث رجل إلى رجل جارية وكان بين أصحابه، فقال: قبيح إن اتخذتها لنفسي وأنتم حضور وكلكم له حق وحرمة وهذه لا تحتمل القسمة، وكانوا ثمانين فأمر لكل واحد بجارية أو وصيف.

مكرمة: لما قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة ومعه عشرة آلاف دينار، فقيل له: تشتري بها قرية فضرب خيمته خارج مكة وصب الدنانير، فكل من دخل عليه قبض قبضة وأعطاه، فلما جاء وقت الظهر نفض الثوب ولم يبق شيء.

مكرمة: أضاف عبد اللّه بن عامر رجلا فأحسن قراه، فلما هم بالرحيل لم يعنه غلمانه فشق عليه، فقال عبد اللّه: إنهم لا يعينون من يرتحل عنا.

مكرمة: كانت عجوز في جوار عبد اللّه بن طاهر ولها أربع بنات فقيل لها: أنت فقيرة فلو بعت دارك وتوسعت بها على نفسك وعيالك فقالت: نعم غير أني لا أبيع جوار عبد اللّه بن طاهر بالدنانير، فانتهى إليه الخبر؛ فدعا عبد اللّه دلالة النساء، وقال: إن لي أربع بنات فاطلبي أزواجا كراما، فجهزهن كل واحدة بمائة ألف من خزانته.

كان لعبد اللّه بن المبارك جار يهودي فأراد أن يبيع داره فقيل له: بكم تبيع؟، قال بألفين فقيل: لا تساوي إلا ألفا، قال: صدقتم، ولكن ألف للدار وألف لجوار عبد اللّه فأخبر ابن المبارك فدعاه فأعطاه ثمن الدار، وقال: لا تبعها.

مكرمة: قيل لامرأة مدنية: ألا ترتحلين إلى بغداد للعيش الطيب، فقالت: لا

أبيع جوار هذا القبر بنعيم الدنيا.

مكرمة: مر النبي ﷺ على أبي بن كعب ﷺ وهو يلازم غريما، فقال لأبيّ: «أحسن إلى أسيرك»، ومضى النبي ﷺ، فقال لغريمه: قد وهبت منك ألف درهم لوجه اللّه تعالى، وألفا لأجل النبي عليه السلام، وألفا لأجلك لأنك مسلم وخلى سبيله، ثم قال: ما فعلت شيئا فدعاه وأعطاه ثلاثة آلاف درهم، وقال: ألف لوجه اللّه تعالى، وألف لأجل النبي عليه السلام، وألف لأجلك، ثم أخبر النبي ﷺ فرفع النبي عليه السلام يده وقال: اللهم اغفر لأبيّ ثلاثا.

مكرمة، في (كتاب الجواهر): لما حجّ معاوية ﷺ قال الحسين لأخيه الحسن رضى اللّه عنهما: لا تسلم عليه قال: إن علينا دينا فلابد أن أذهب إليه فتلقاه وسلم عليه وأخبره فمروا بنجيب عليه ثمانون ألف درهم وهو مضطلع، فقال: اصرفوه إلى أبي محمد.

مكرمة: جاء أنصاري إلى ابن عباس – رضي اللّه عنهما – فقال: يا ابن عم رسول اللّه إنه ولد لي في هذه الليلة مولود وإني سميته باسمك وإن أمه ماتت، فقال: بارك اللّه لك في الهبة، وأجزل لك أجر المصيبة، ثم دعا بوكيله فقال: اشتر لهذا المولود جارية ترضعه، وخادما يخدمه، ومائتي دينار للنفقة على أمه، ثم قال: عد إلينا بعد أيام، وإنك قد جئتنا وفي المال قلة، فقال الأنصاري: جعلت فداك، إنك لو سبقت حاتما ولو بيوم واحد ما ذكرته العرب، وأنا أشهد أن غبار جودك أكثر من مجهود جوده، فلم يزل يبر الأنصاري حتى مات.

مكرمة: نزل الشافعي ببغداد في دار أبي حسان الزيادي سنة في أنعم حال، ثم استأذنه في الخروج إلى المدينة فبعث أبو حسان إلى ستة من إخوته ست رقاع فرجع جوابها مع كل رقعة ألف دينار فصبها بين يدي الشافعي ﷺ ثم بكى أبو حسان، فقال له الشافعي: ما يبكيك؟ قال: ما كنت أقدر أن أكتب إلى أخ من

إخواني في أخ مثلك نزل عليّ في شرفك ومنصبك.

مكرمة: باع الشافعي ضيعة بمائة ألف فقسمها هكذا وهكذا.

مكرمة ابن عيينة: جاء إليه ابن أخيه، فقال: جئتك خاطبا لابنتك، فقال: كفؤ كريم، ثم قال: اجلس فجلس، قال: يا بني، اقرأ عشر آيات من كتاب اللّه تعالى، فلم يستطع، فقال: ارو عشرة أحاديث، فلم يستطع، قال: أنشد عشرة أبيات شعر، فلم يستطع، قال سفيان: لا قرآن ولا حديث، ولا شعر، فعلى أي شيء أضع عندك ابنتي، ثم قال له: لا أخيبك فأمر له بأربعة آلاف درهم.

مكرمة: كتب الواقدي رقعة إلى المأمون يشكو إليه كثرة دينه، فكتب إليه: أما بعد فإنك رجل فيك خلتان: سخاء وحياء، فالسخاء هو الذي أطلق ما في يدك، والحياء هو الذي يمنعك من أن تبلغنا ما أنت عليه، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم.

مكرمة أبي مرثد: كان من الكرام مدحه بعض الشعراء، فقال: وما عندي ما أعطيك؟ ولكن قدمني إلى القاضي وادّع عليّ عشرة آلاف درهم حتى أقر لك واحبسني، فإن أهلي لا يتركوني مسجونا، ففعل فلم يمس حتى دفع إليه عشرة آلاف درهم.

مكرمة: سأل رجل الحسن بن علي شيئا فأعطاه خمسة آلاف وخمسمائة درهم، وقال: ائت بحمال يحملها لك، وأعطاه طيلسانه، وقال: يكون كراء الحمال من قبلي.

مكرمة: سألت امرأة الليث بن سعد سكرجة عسل، فأمر لها بعشرة أزقاق[1] من عسل، فقيل له، فقال: إنها سألت على قدر حاجتها، ونحن نعطي على قدر همتنا.

---

(١) أزقاق: جمع (زِق)، وهو السقاء، أو جلد يجزُّ ولا ينتف للشراب وغيره. "القاموس المحيط".

مكرمة: أهدت عجوز إلى السلطان محمود الغازي طبق ملح، فأمر أن يجعل مكانه من الذهب، فقيل له، فقال: أعطت على قدر همتها، ونحن نعطي على قدر همتنا.

مكرمة: قال بعض الناس: صليت في مسجد أشعث في الكوفة أطلب غريما لي، فلما سلمت وضع بين يدي كل رجل حُلَّة ونعلان، فقلت: ما هذا؟ قالوا: إن الأشعث قدم من مكة فهذه هديته لأهل جماعة مسجده، فقلت: أنا أطلب غريما لي، فقالوا: هو لكل من حضر.

مكرمة صعصعة بن ناجية، محيي الوئيدات، لم يشركه في هذه المكرمة أحد، كان ينادي في أحياء العرب: لا أسمع برجل يريد أن يئد ابنته إلا اشتريتها بالقوحين[1]، فعمل حتى جاء الإسلام ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾[الإسراء: ٣١].

يا هذا استحي من اللّه تبارك وتعالى من إيراد هذه المكارم. هل من بني زمانك أو من سلطانك واحدة مما عددتها؟! يا عجبا، ودهرنا عجائب، هذا كافر يأتي بالمكارم، والمنتمون إلى الإسلام بمعزل، أين الرجال يا نساء الرجال وربات الحجال؟ قل للوزراء حتى يطالعوا، وقل للرؤساء حتى يتهيئوا، فقد غاض الكرام، ونبغ اللئام، وتكدرت الأيام.

مكرمة غالب بن صعصعة، أبو الفرزدق: أقرى مائة ضيف واحتمل عشر ديات، وهو لا يعرف من هم.

مكرمة: فقير كان يمشي في شوارع بغداد فنظر إلى جارية الخليفة فشغف بها حتى عجز عن الصبر، فكتب قصته ودفعها إليه، فقال: اطلبوا صاحبها فأحضر، فقال: أي شيء حملك على هذا؟ فقال: ثقة بكرمك واعتمادا على تفضلك. فقال: لا نخالف ظنك فأعتقها وزوجها منه.

---

(١) لعلها (بالقدحين)، فالقوحين لا معنى لها.

بعث عبد اللّه بن جعفر إلى وليمة بخمسمائة دينار، واعتذر من حضوره، وسأله أن يحلله من ذلك.

عطش عبيد اللّه بن أبي بكر فاستسقى في طريقه من منزل امرأة، فأخرجت كوزا، وقالت: إني امرأة من العرب مات صاحبي منذ أيام، فشرب، وقال لغلامه: احمل إليها عشرة آلاف درهم، فقال: سبحان اللّه أتسخر بي؟ فقال: أعطها عشرين ألفا، قالت: أسأل اللّه العافية، قال: يا غلام احمل إليها ثلاثين ألفا، فردت الباب فأعطاها ثلاثين ألف درهم فما مضى الشهر حتى كثر خطابها.

مكرمة: مرض قيس بن سعد بن عبادة، فاستبطأ إخوانه في العيادة، فقيل: إنهم يستحيون من الدّين الذي لك، فقال: أخزى اللّه الدين، ثم أمر مناديا من كان لقيس عليه مال فهو في حل؛ فكسرت عتبته بالزحام.

مكرمة: خرج عبد اللّه بن جعفر - رضي اللّه عنهما - إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم، وفيها غلام أسود، فدخل كلب النخيل، فرمى إليه الغلام بقرص فأكله، ثم رمى بالثاني والثالث، وعبد اللّه ينظر فقال: يا غلام كم قوتك؟ قال: ثلاثة أرغفة، قال: فلم آثرت هذا الكلب، قال: ما هي بأرض كلاب، فعلمت أنه جاء من مسافة بعيدة فكرهت رده، قال: فما أنت صانع اليوم، قال: أطوي يومي، فقال عبد اللّه: أمدح بالسخاء وإن هذا لأسخى مني، فاشترى الحائط والغلام وأعتقه ووهبها له. أين أصحاب الدعاوى فيعتبرون هذه المكارم، لا قعبان من لبن.

مكرمة: أتى رجل صديقا له فدق الباب فخرج، فقال: لماذا جئتني؟ قال: لأربعمائة درهم ركبتني، فدخل ووزن أربعمائة درهم ودفعها إليه، ودخل الدار باكيا، فقالت له امرأته: هلا تعللت حين شق عليك؟ فقال: إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى مفاتحتي به.

مكرمة: أراد رجل عبد اللّه بن العباس فأتى وجوه البلدان وقال: يقول لكم

فلان: تغدوا عندي اليوم، فأتوه فملأوا الدار، فقال: ما هذا؟ فأخبر الخبر فأمر بشراء الفواكه والطبيخ، فلما فرغوا قال لوكلائه: أموجود لنا كل يوم هذا؟ قالوا: نعم، قال: فليتغد هؤلاء عندنا كل يوم.

مكرمة أبي سهل الصعلوكي: سأله إنسان شيئا فلم يحضره فقال: اصبر حتى أفرغ من الوضوء، فلما فرغ من الوضوء، قال: خذ القمقمة واخرج ووهب جبته من إنسان في الشتاء وكان يلبس جبة النساء حين يخرج إلى التدريس ولم يكن له جبة.

مكرمة عبيد اللّه بن العباس: أرعى رجلا إبلا له فأسمنها وردها، فقال: كيف تراها؟ قال: تسر الناظرين وتخصب الزائرين، قال: فإنها لك ولك أجرها فبكى الأعرابي، فقال: ما يبكيك؟ قال: أبكي ضنا بهذا الوجه أن يعفر في التراب، قال: هذا القول أكرم من هذا الفعل.

مكرمة: جاء رجل إلى زياد فقال: إن لي حرمة أفأذكرها؟ قال: ما هي؟ قال: رأيتك بالطائف وأنت صغير ذو ذؤابة أحاط بك جماعة من الغلمان وأنت تركض هذا برجلك وتنطح هذا برأسك وتكدم هذا بأنيابك، حتى كاثروك فأخرجتك من بينهم وأنت سليم وكلهم جريح، فضحك وقال: كأني أنظر إلى ما تصف، ولقد ذكرتني حالا وددتها بباقي عمري كله، ولكن ما حاجتك؟ قال: اكفني عن الطلب، فدعا خازنه، وقال: أعطه كل صفراء وبيضاء عندك فبلغت قيمة جميعها أربعة وخمسين ألف دينار. واللّه إني لأستحي من رواية هذه المكارم وارتمض في زمان يتباهى فيه باللؤم ويتبجح فيه بالسخف.

مكرمة عدي بن حاتم الطائي: خطب ابنته عمر فقال: أزوجكها على حكمي فخاف عمر أن يميل في الحكم فأمسك وشاور، فقيل: تزوج على حكمه فحمد اللّه تعالى وأثنى عليه، وقال: زوجتك على السنة على أربعمائة درهم فبعث إليه بكرامة ابنته أربعين ألفا وغلمانا وثيابا، فقسمها بين جلسائه وجهز ابنته من عنده.

الباب الثامن

في حكايات أهل الفتوة

حكاية: كانت امرأة بنيسابور حملت زوجها إلى القاضي تدعي عليه خمسمائة دينار فأنكر الرجل، فاستدعى القاضي منها إحضار الشهود، فأحضرتهم، فقالوا: حتى نكشف عن وجهها، ثم نشهد فهمّت أن تسفر عن وجهها، فصاح الرجل وأدركته الغيرة، وقال: أنتم تريدون أن تنظروا إلى وجه زوجتي، أيها القاضي أشهد أن لها عليّ حقا واجبا ستمائة دينار، فتعجب القاضي والحاضرون من حميته وغيرته، فقالت المرأة: أيها القاضي أشهدك أنه بريء من حقي وإني قد أحللته من ذلك؛ فتعجبوا غاية العجب، ثم قال القاضي: اكتبوه وضعوه في باب الفتوة.

حكاية: رجل همداني ضيع كيسا به دنانير بمكة فدهش وتعلق بجعفر بن محمد الصادق، وقال: أنت أخذت دناتيري، وكان لم يعرفه، فقال جعفر: كم كان فيها؟ قال: مائة دينار، فحمله إلى بيته وأعطاه من ماله، وقال: انتفع بها ليقضي اللّه أمرا كان مفعولا، فاتفق أنه وجد ضالته، وعرف منزلة جعفر بين الناس، فجاء إليه بالدنانير معتذرا، فقال جعفر: كلا ليس من المروءة أن يرجع الرجل في شيء قد وهبه، ولم يأخذه.

حكاية: كان رجل نيسابوري يدعي الفتوة، فاجتاز يوما بمفرق الطرق فرأى شابا مريضا يتأوّه ويستغيث فتقدم إليه وقال: ما تشتهي؟ قال: أشتهي رؤية أمي والرجوع إلى وطني، قال: أين منزلك؟ قال ببلخ، فأخذ الرجل بمجامع لحيته ولطم نفسه وكان اسمه أبا الحسن، فقال: يا أبا الحسن، كنت أظن أنه يشتهي فقاعا أو قصعة هريسة، ادعيت الفتوة فهات المعنى، فرجع إلى بيته وباع داره واكترى راوية وحمولة، وأتى وحمل الرجل، وأوصله إلى منزله، فرأى عجوزا تبكي وتستغيث، وتقول: متى ألقاك قرة عيني؟. فلما رأته غشي عليها من الفرح، فلما أفاقت قالت: رضي اللّه عنك وأدخلك الجنة، فرأى الشاب في المنام أن هاتفا يهتف

به: أبشر فقد رضي اللّه عنك ،وكتب اسمك في جريدة السعداء.

حكاية: كان أبو حسان الزيادي ببغداد يسعى في مصالح المسلمين فجاءه ذات يوم رجل صالح، فقال: إن بيته قد تهدم، وأطفاله جلوس في السوق، ولا شيء بيدي أنفق عليهم فأدركني، فرق أبو حسان وحمله إلى أبي غسان بن عباد وأجلسه في ناحية من الدار. وقص على أبي غسان القصة وكان رجلا كريما مفضالا جوادا، قال: أوه قد أحرقت كبدي، أين الرجل أيها القاضي؟ قد أحزنتني فهناك خمسة آلاف درهم، عَجِّلْ بها إليه ليصرفها إلى وجه النفقة والعمارة، وأخبره أنني ما دمت حيا فنفقته وكفايته عليّ، فأخبر القاضي أبو حسان الرجل ففرح بذلك، فرأى القاضي تلك الليلة في المنام أن ملكا أخذ بيده وأدخله الجنة وأراه قصرا عجيبا مكللا بالدر والياقوت ووراءه قصر أحسن منه، فقال له الملك: يا أبا حسان إن اللّه تعالى خلق هذا القصر وأسسه من ياقوت أحمر لأجلك بسبب سعيك في أمر ذلك الفقير وإدخال السرور في قلبه، وخلق ذلك القصر باسم أبي غسان وإحسانه الذي صنع مع ذلك الرجل.

فليعلم أن إدخال السرور في قلب الرجل المسلم من أعظم العبادات، وإقامة الكرم والإحسان من شيم أهل المروءات، طوبى لمن جرت على يديه الأمور الصالحات.

الباب التاسع

في مكارم الأخلاق

قال النبي ﷺ: «مكارم الأخلاق عشرة تكون في الرجل ولا تكون في ابنه وتكون في الابن ولا تكون في أبيه، وتكون في العبد ولا تكون في السيد، ويقسمها لمن أراد به السعادة: صدق الحديث، وصدق الناس، وإعطاء السائل، والمكافأة بالصنائع، وحفظ الأمانة، وصلة الرحم، والتذلل للصاحب، وإقراء الضيف، ورأسهن الحياء». وكان فيه ﷺ حلم إبراهيم، وزهد عيسى، وغلظة

موسى، وشدة نوح، وصبر أيوب، وسعة سليمان، فجمع من مكارم الأخلاق ما كان متفرقا في الأنبياء صلوات الله عليهم؛ فسماه الله تعالى عظيما. قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤] ثم دعا عباده إلى الاقتداء به والتخلق بأخلاقه، فقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

الباب العاشر

في الفرق بين الفتوة والمروءة

اعلم أن أمر الدين موضوع على شيئين: ديانة تصحبها، ومروءة تحفظها، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ [البلد: ١٧] فمن قصد أن يوطن نفسه على صلة من قطعه، وإعطاء من حرمه، والعفو عمن ظلمه، فلا يستمر على ذلك إلا بالصبر، والدين أساس كل خير، ومن لا دين له لا مروءة له، ومن لا دين له لا فتوة له، ومن لا دين له لا صبر له، ومن لا دين له لا عقل له، ومن لا دين له لا عفة له، ومن كان له دين وعقل ومروءة وصبر ولم يكن له خلق حسن فلا شيء معه. قال معاوية: المروءة في أربع: العفاف في الإسلام، واستصلاح المال، وحفظ الإخوان، وعون الجار، فالفتى صاحب المروءة إذا حَدث يحسن، ويحسن الاستماع إذا حُدث، ويحسن بشره إذا لقي، وييسر المؤنةِ إذا خولف، ويترك ممازحة من لا يثق بعقله، وقال: العافية: الشباب والصحة، والمروءة: الصبر على الرجال.

سؤال: ما الفرق بين المروءة والفتوة؟ فأقول: الفتوة تخالف المروءة في أمر واحد، وهو أن المروءة إصلاح الظاهر من آفات دنيء الأخلاق وسفاسفها ليرتفع بها عند الناس ويحظى عندهم. والفتوة: إصلاح الباطن من آفات دنيء الأخلاق ليرتفع بها عند الله ويحظى لديه. قال: اتخذ لأمير المؤمنين ﷺ حَيْس[1]،

---

(١) الحيس: الخلط، وتمر يخلط بسمنٍ وأقِطٍ، فيعجن شديدًا، ثم يندر منه نواه، وربما جُعل فيه سويق. "القاموس المحيط".

فحضره مسكين فأعطاه إياه، فقيل: يا أمير المؤمنين ما تدري ما هذا المسكين؟، فقال: رب المسكين يدري، وغلا بالمدينة السعر فجعل عمر يأكل خبز الشعير فجعل جوفه يصوِّت فيضرب بطنه ويقول: واللّه مالك إلا هذا حتى يوسع اللّه على المسلمين. واشتهى يوما شربة من عسل فأتى به فجعل يديره ويقول أشربها فتذهب حلاوتها ويبقى نقمتها، فدفعها إلى فقير، وقال: من جاع واحتاج فكتمه الناس وأفضى إلى اللّه بحاجته كان حقا على اللّه أن يعين له رزق سنة من حلال؛ وليس من الفتوة الفسق والفجور، ولكن بِشْرٌ مقبول، ونائل مبذول، وعفاف معروف، وأذى مكفوف.

قال هارون الرشيد: المروءة: ثلاثة أثلاث: فثلثها الفطنة، وثلثاها التغافل. قال رجل للأحنف: دلني على مروءة بلا مؤنة، فقال: عليك بالخلق الفسيح، والكف عن القبيح، واعلم أن الداء الذي أعيا الأطباء اللسان البذيء والفعل الرديء، واللّه أعلم وأحكم.

الباب الحادي عشر

في حديث نعيمان

أنبأنا هشام بن عمرو عن أبيه قال: أقبل أعرابي على ناقة له حتى أناخ بباب المسجد، فدخل على النبي ﷺ وحمزة بن عبد المطلب جالس في نفر من المهاجرين والأنصار فيهم نعيمان، فقالوا له: ويحك إن ناقته سمينة، وقد قَرِمْنا[1] إلى اللحم فلو نحرتها لغرمها[2] رسول اللّه ﷺ وأكلنا لحما، فقال: إني إن فعلت ذلك وأخبرتموه بما صنعت وجد عليَّ رسول اللّه ﷺ قالوا: لا نفعل، فضرب

(١) قَرِمنَا: من القَرَم، وهو شدة شهوة اللحم.
(٢) أي: دفع لك ثمنها. "القاموس المحيط".

لبنتها[١]، ومر بالمقداد بن عمرو وقد حفر حفيرة، فقال: يا مقداد غيبني في هذه الحفيرة، وأطبق عليّ، ولا تخبر أحدا فإني قد أحدثت حدثا، ففعل، فلما خرج الأعرابي رأى ناقته فصرخ، فخرج النبي ﷺ وقال: من فعل هذا؟ قالوا: نعيمان قال: وأين توجه؟ قالوا: ههنا، فتبعه رسول اللّه ﷺ ومعه حمزة وأصحابه حتى أتوا على المقداد، فقال: هل رأيت نعيمان؟ فصمت، فقال: لتخبرنّي به أين هو؟ فقال: ما لي به علم - وأشار بيده إلى مكانه -[٢] فكشف رسول اللّه ﷺ وقال: أي عدو نفسه ما حملك على ما صنعت؟ قال: والذي بعثك بالحق أمرني به حمزة وأصحابه، وقالوا: كيت وكيت، فأرضى رسول اللّه ﷺ الأعرابي عن ناقته، وقال: شأنكم بها فكلوها، فكان رسول اللّه ﷺ إذا ذكر صنعه يضحك حتى تبدو نواجذه.

ولما كان رسول اللّه ﷺ يصف شرور الدجال، وأن معه جبلا من خبز، وجبلا من لحم، فقال نعيمان: أترى يا رسول اللّه نحن لا نأكل من خبزه ولحمه، فضحك النبي عليه السلام. تم كتاب المكارم والمفاخر، والحمد للّه رب العالمين وصلى اللّه على محمد وآله.

---

(١) أي: ذبحها.

(٢) أي: لا علم لي ماذا جدَّ عليه بالحفرة وكيف يفكر وما آلت إليه حالته - فهو يصدق رسول الله ﷺ في حديثه.